ذكرى بعلبك

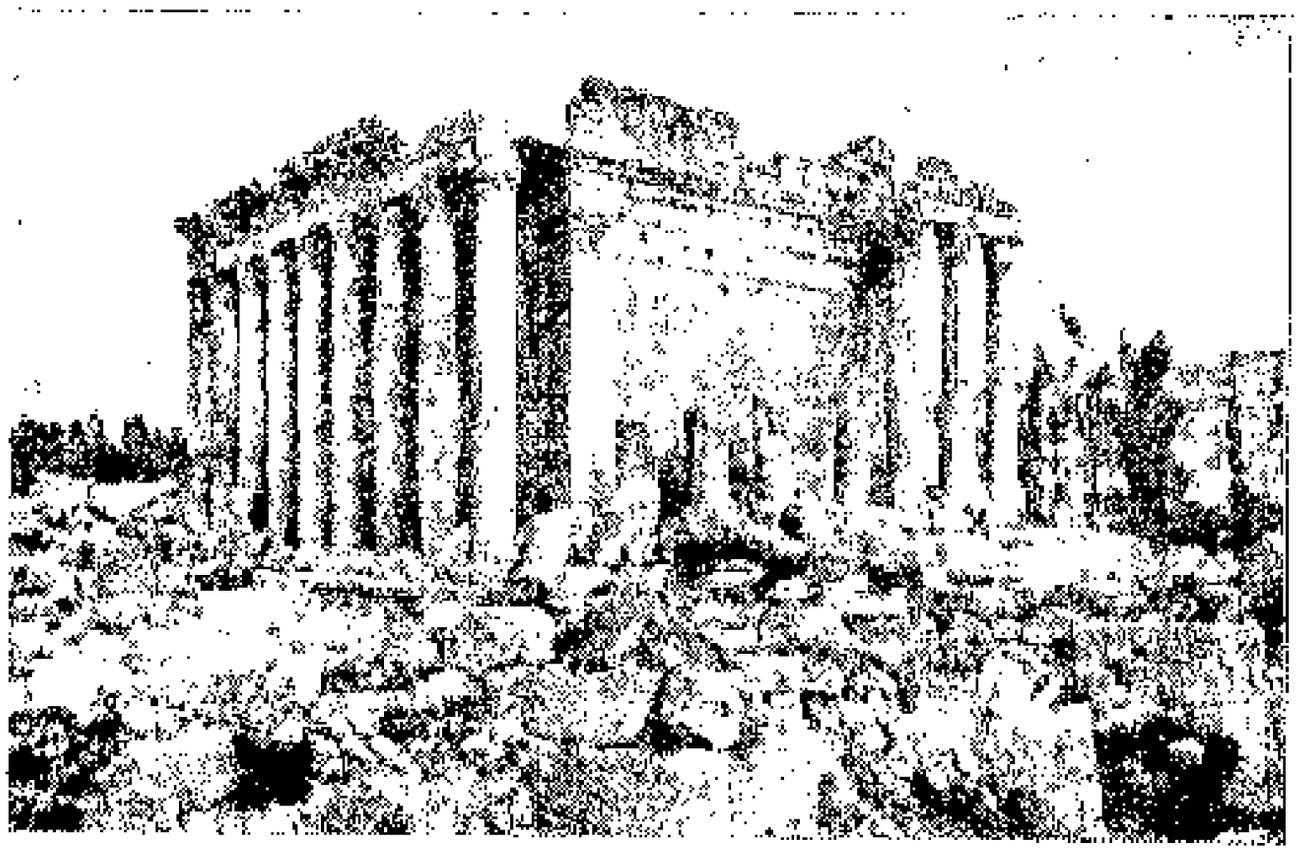

« معدٌّ للاسرار قام ولكن صنعه كان أعظم الاسرار »

(خليل مطران)

« يقول الغد فى نفسه : لو علم هذا
« الجامع انه يجمع للوارث ، وهـذا
« البـانى انه يبنى للخراب ، وهذا
« الوالد انه يلد للموت لما جمع الجامع
« ولا بنى البانى ولا ولد الوالد »

(المنفلوطى)

تحرك القطار صباحاً في محطة بيروت وهو يهـدر ويشخر ويزمجر غضباً ، وقد فاض بركان غيظه فاخذ يقذف دخاناً قاتماً أثقل الهواء حتى ترامت أطرافه على أطراف الامواج فازعجت زرقتها . وما برح صراخه الهائل كأنه زئير ألف أسدٍ معاً يتردد في جوانب الفضاء البعيـد ، حتى

خيّل اليّ ان صدى تموجات هذا الزئير المرعب قد لمس رؤوس أعمدة بعلبك متمتماً : ها اني سبقت زائريكِ العتيدين لأقول لكِ اني لو تجاسرت لاحتقرتكِ ايتها الاعمدة ، لكن سخطي عظيم عند مرآي هؤلاء الناس الذين يستعملونني ، أنا آية اختراعات السنين الحاضرة وأنفع آلة تجارية ، للوصول اليكِ ، أنتِ يا رمال الايام ويتيمة الليالي الغوالي !

بيد ان القطار ما لبث ان أسرع في سيره متلوياً بين الشجيرات الخضراء ، وهدأ سخطه تحت قبلات النسيم الآتي من أعالي الجبال ، فتدرج صاعداً على اكتاف لبنان ، وظل يترك محطة ويمرّ باخرى حتى وقف في محطة صوفر ، وهي أعلى نقطة فوق وادي حمانا الذي قال فيهِ لامرتين انه أجمل أودية العالم القديم ، فرأيت التلال فيهِ تتطوى ، كانها أقمشة حريرية ، لمداعبة أطراف الجبال المجاورة ، فتنبسط هذه تحتها سطوح مستديرة الشكل تكسوها أشجار الصنوبر وتتخللها القرى البيضاء المساكن ، والقرميد الاحمر يكلل كل بيت من بيوتها كأنه هالة قرمزية. وهناك على الشاطئ ترى آكاماً صغيرة رابضة كاسود تحرس الامواج ، والبحر الفسيح يبسط أمامها زرقته مرتفعاً في أطراف الافق حيث يمتزج أثيره بأثير الجو متلاشيين وراء آفاق بيروت القائمة في المياه العثمانية مليكة عليها ، كانها قيثارة الجمال تضرب الامواج على أوتارها أغاني الارواح ، وأناشيد البحار ، وتهاليل العناصر وتعاظيمها

ثم أخذ القطار في النزول حتى بلغ سهول بعلبك الغائبة حدودها وراء آفاق بعيدة لا يدركها النظر . سهول هي أشبه بوادٍ متسع ينحصر

بين سلسلتي لبنان وأنتي لبنان القائمتين على جانبيها، كأنها اسوار الدهر تحدق بمروج الحياة

وبعد ان تواصل السير في السهول نحو ثلاث ساعات ، تراءى لنا عن بعد ، في عصر النهار ، شبح (مدينة باعال) محاطاً بنطاق لطيف من الاشجار المغذية والحور الرجراج . وفوق المدينة وجنائنها ترى أعمدة هيكل الشمس ترتفع بقدها الاهيف العظيم . أجل ! ان هيكل الشمس هذا الذي كان أعجب عجائب الدنيا ببنائه ولا يزال اليوم أعجبها بأخربته ، لا يبقى منه سوى ستة أعمدة قائمة في المروج البعيدة ، وكأني بطيفها ينادي المسافر قائلاً : تعال وانظر اليَّ ، يا ايها المارّ ، فهل من حزن أشد من حزني ؟

أثرٌ عظيمٌ من عظمة باهرة تظهر حوله اكبر الاشجار اعشاباً ، بل شبح الاعصر الغابرة يحاول تخليد ذكر الأصنام المعبودة . . . وثلوج لبنان تطلُّ من أعالي فم الميزاب وظهر القضيب مستفهمةً عن سر هدم الهياكل

منذ الوفٍ من الاعوام ترسو هذه الثلوج في مكانها . فالشمس تشرق وتغيب ، والصيف يأتي والشتاء يذهب ، وينقضي الخريف ويحل الربيع وقلعة بعلبك تظل شاخصةً في عظمتها المحطمة ، وثلوج لبنان الطاهرة تحدق بها وتود أن تفهم أي خطب جرى ، لكنها لا تفهم ! . .

* * *

تجسم حزني وجثا على اعتاب القلعة باكياً . ولست ادري أتراه

بكى هنالك لوعةً على أعجوبة الدهور البالية ، او هو منظر الدرجات التي وضعتها يد الالماني هنالك حديثاً غشى بصره وأسال دموعه

عند مدخل هذا الهيكل الذي لم يكتشف علماء الآثار له من مثيل ، هـذا الهيكل الذي ألقت اساساته المخيفة في طبقات الارض شعوب شرقية تلاشت وتركت لنا في ذكرها شيئاً من روحها الكبيرة ومطالبها السامية ، أتى الاجنبي ووضع درجات اجنبية موصلة الى معابد آلهـة الشرق القديم . عند هذا المشهد شعرت بغصّة أضاقت صدري كأن هذه الحجارة بجملتها ثقلت على فؤادي ، لأنهـا دليل تداخل الغربي في قديمنا وجديدنا ، وعنوان طمعه في الاستيلاء على بلادنا وجبالها وآثارها . وكان الأولى بالالماني أن يتركنا نبكي بسلام تراب هيا كلنا الغالي دون أن تأتي يده الضخمة عاملةً في ترميم مداخل المعابد ، مدنسةً ما قدسته دهور البلايا وعززته بلايا الدهور !

دخلت أمشي الهوينـا بين كوم الابنيـة وبقايا الخرب وحولي الأعمدة المطروحة على الحضيض ، كأنها جبابرة وعمالقة ، يلامس بعضها بعضاً ، ورؤوس الأسود المهشمة تتعانق عناقاً ابدياً . وآثار شعب سابق تختلط بآثار شعب لاحق . وتراب يتراكم فوق الأفاريز المرضضة والنقوش المحفّره . مشيت في عالمٍ من العجـائب الفنية وانا لا ادري كيف قدر الانسان على ايجاد هذه الجمالات ، وأتعجب كيف سطا الزمان عليها فهدمها وجعلها أشبه شيء بغابةٍ هاجمتها العواصف فكسرت منها الاشجار واقتلعت منها الاصول وغادرتها تاركة بعض اغصانها ملقاة على حضيض الهوان

أين من هذه العظمة عظمة قصور عصرنا ! فانها تخال ألعاباً صبيانية شيدت في اوقات فراغ ولهو ، فيها الحصا تقوم مقام الحجارة ، والاشبار فيها توازي الاميال ...

لقد تألبت أعظم شعوب الارض على هذا الحصن الحصين مهاجمة جدران مجده . فالعرب والرومان ثم العرب ثانية قد خرّبوا بعض هياكله الفسيحة ، وشيّد المسيحيون كنيسة على قوائم معابد الاصنام ، ثم اصبحت الكنيسة والمعابد حصناً حتى اتت الزلازل مدهورة جدرانه ، محطمة عظمته بعد ان هشمتها وأهانتها في وقوفها وارتفاعها يد الانسان !

لكن آثار المجد لا تزال كامنة في أخربة بعلبك . والروح العصرية تقف مترددة بين السخرية والاحترام عندما ترى ان هذه الهياكل شُيدت من أجل آلهة خيالية تضحكنا الآن أسماؤها . وتهبط على القلب تأثيرات متعددة متضادة من خوفٍ واعجاب وحزن وشفقة وغضب لكن هذه تتلاشى بكليتها وتقوم مقامها عاطفة واحـدة تستغرق سائر العواطف ، وتضم في قوتها قوى النفس جمعاء ، وهي الشعور بعمق السرّ العظيم ، سر الاكوان غير المتناهي ...

... وهناك على ارتفاع هيكل الشمس تقف ستة أعمـدة حاملة افريزاً كأنه تاج مكسّر ، ورؤوسها تنحني على وهدة الذل المطروح في اعماق عزّها المفتّت ، وانحناء هـذه الأعمدة هو بكاء وتأبين ، بل هو التأبين الوحيد الذي يليق بقلعة بعلبك ...

على ان ثلوج لبنان تنظر من اعاليها الى حزن الجماد الدهري وتود

أن تفهم ، لكنها لا تفهم . . .

* * *

ألا كسّروا باليأس الاقلام وأزيلوا المداد عن الطروس ، والجموا الشفاه المتمتمة ، وشدوا وثاق الايدي المتحركة للدلالة والكتابة !

عند هذا الخراب الهائل والتهدم الموجع تفوح رائحة الاكفان ، وتتطاير عطور القبور ، ويعبق فضاء المخيلة من غيوم البخور المحرق على هذه التي دكّتها يد الدهور !

كسروا الاقلام ومزقوا الطروس ! ان هـذا الموقف لا يجوز فيه التأبين الأ بحزن الجماد ولوعة النفوس

أتأبين الارواح لا زلت للأفئدة مفطراً ، ما دامت عِبرُ الزمان تطرح بالجبابرة على حضيض الهوان ! أدموع القلوب لا زلتِ محرقة كشعلات النيران ما دامت تبتر سلسلة الحياة ، وتعتل حركة القلوب ! أ آثار الحياة لا زلت غالية كزهور الآمال وسواد العيون ، ما دامت الآمال تذوي بالمتأمل ، وما دام سواد الموت يبيّض سواد العيون !

أأعمدة بعلبك لا زلتِ محطمة ، صامتة ، محزنة ما دامت بقايا المنى راقدة في زوايا المهج ، وخيالات الآلام والاوجاع هاجعة في طيات الصدور !

اذا كان الدهر يهزأ بهذه الجدران الدهرية ، فماذا انتم من الدهر منتظرون ؟ اذا كانت خيالات اقدام الزمان تمر على هذه القوات المشيدة والعظائم المؤيدة فتسحقها سحق الصخر للتراب فماذا تعني بعـد ذاك حركة قصبتكم المضحكة ، ونقش اوراقكم البالية ؟ اين من الامكنة موضعها ،

والى اين في الفضاء مصيرها ؟

ضموا الى شفاهكم الاقلام والى قلوبكم الطروس ! دعوها تنطق يأساً باسم قلعة بعلبك ، ثم حطموها وان كانت غالية ، ومزقوها وان كانت شطراً من الارواح !

... الزمان يتابع سيره ويلاً لتربة تدوسها قدمه ! هناك تتراكم الزلازل وتفيض البحار ، هناك يشعر الانسان بانه عبد لحظات الاقدار ، وان عينيه لا تعرفان من الكون غير سواد الليل واسوداد النهار ...

ص

رسائل غرام

بين نساء شهيرات ورجال عظام

الرسالة الخامسة

من دورثي اوسبرن الى السر وليم تمبل

(السر وليم تمبل من اشهر رجال السياسة الانجليز نبغ فى اواخر القرن السابع عشر وتقلب فى عدة مناصب سامية . وكان فى صباه قد علق بحب فتاة تدعى دورثى اوسبرن وهى من اسرة شريفة . وبعد ان قاسى الحبيبان الشدائد من اهلهما تزوجا واعتزل السر وليم الى موضع يعرف بحدائق « شين ومور » بضواحى لندن حيث قضى بقية حياته مع زوجته . وقد طبعت رسائلهما منذ ثمانى سنوات فى انكلترا فكان لها وقع عظيم . والرسالة الآتية مأخوذة منها)

في رسالتك الاخيرة عبارةً أضحكتني وادهشتني معاً . قلت انك لم تكتب اليَّ في الاسبوع الفائت لأنه لم يكن لديك اخبار تستحق الاهتمام.